قريتي الصغيرة

قصة قصيرة

أسماء عبدالكريم

قريتي الصغيرة..!

My a little village

عندما خرجتُ من قريتيَ الصّغيرةِ لأول مرة ، كان قلبي ينبض بين عينيَّ فرحاً وابتهاجاً بمشاهدةِ الأبراج، والوجوه المختلفة.

لم أفكِّر كيف سأحصل على المال؛ أردتُّ السَّفر لا غير.

أكره المال وأهل المال، ولديَّ قناعةٌ، أنَّ الأغنياءَ لا يُمكن أنْ يؤسِّسوا للسّلام! وإن حالفك الحظ ودخلتَ معهمْ مَطْعماً أوْ سُوقاً، فإنَّك ستخرج كما دخلت!

قَلِّبْ في سِجِلِّ الخَالِدين ، وانظر؛ هل ورّث المترفون قصيدة واحدة، أو رواية واحدة؟

إنَّهمْ فقراءُ كَبْرٍ مُعَطَّلَة.

خَوَنةٌ أشْرارْ.

لم يكن أبي من أولئك الذين يمشون حَافيي الأقدام!

كنتُ أشعر حين أمشي حَافِياً ..أنَّ الأشجار قريبة إلى قلبي كأغنية حزينة!

أشعر أنَّ الطبيعةَ تحْتضِنُني؛

وحين أرتدي حذاءً، ينقطع عنِّي الإلهام. أليستْ آلَةُ العُودِ من الأشجار؟

كنتُ أشعر أنِّي آلةُ عود.

لذلك؛

لمْ أكُنْ وَأبي على وِفَاقْ!

٥

يَسْكُنني هَاجِسُ السَّفرِ عبر البحار إلى كلِّ الدنيا منذ كنتُ صغيرا.

أبراجٌ شاهقة متلألئة..

وجوهٌ مختلفة.

مَلَلْتُ قريتي! لا يَتغيَّرُ فيها شيء! الجدرانُ والممرَّات والجبال والوجوه نفسها!

ما الذي يجعلني سعيدا في مكان لا توجد به مكتبة؟!

أوه، هل قلتُ :كيف أكون سعيدا؟

يَالَهُ من سؤال!

يعني كيف يحصل المرء على السعادة، أو ما هي مصادر السعادة؟

لقد نَزَفَتْ عقولٌ عملاقةٌ من أجل العثور على إجابة! أهي المعرفة أم الأخلاق؟

لكن..

ليذهبوا إلى الجحيم، فما شأني بهم؟

لا أدري إن كان السَّفرُ سعادةً لدى الفلاسفةِ أم لا؟

أحبُّ السَّفر، وأكون سعيدا جدا عندما أكون على متن سفينة؛ لكن بشرط واحد!

أن يكون على كتفي طائرٌ من طيور الأمازون.. وحدي على الدَّفَّة، وقارورة عصير كركديه، ومنظارٌ لا غير.

لا أريد أن أتبعَ نِظاماً جماعياً، إنّنا كائنات منافقة.. حتى صلاتُنا من أجل الناس!
أشعر أنني أجمل من هذا الذي يرتديني!

أحبُّ أن أصرخ أحياناً أغنّي.. أبكي .. أفكّر بصوتٍ مرتفع.

كان رفاقُ الطُّفولةِ يُلاحظون شُرودي.. كان صدري يُدندن بالألحان الحزينة.

كنتُ أعلّقُ دون شعورٍ، كمعلق صوتي على نشرة الأخبار، وألوّن في صوتي: ها هو طفلٌ في السَّابعة ، يسوق درّاجة هوائيَّةً، يمرُّ من ذلك الاتِّجاه، يرتدي.. ثمَّ أنتبه فجأة إلى صديقي السُّودانيّ بجواري، يقول لي: جميل.

وا إحراجَتاه!

لذلك؛

حين أمدُّ أشرعتي للبحر، لا أريد أن أزعج أحداً بتصرُّفاتي الغريبة،

أوه؛

لقد تَحَوَّلتْ هَذهِ "لا أريد أن أزعج أحداً" إلى ثقافة!.. لا أدري إن كان هذا سلوك جيد أم لا!

أهيَ نَرجسِيَّة ؟ ضعفٌ؟ قوَّةٌ؟ انطِوائيَّة؟ طبيعةٌ مَرِحة.. طبيعةٌ عبقرية.. ؟

المهمّ..

أنّني لا أحبُّ الخضوع لفكرة ما، ككلبٍ مطيع؛ إنني أكره الطَّاعة .

فرق بين الطّاعةِ والالتزام.

صوتٌ في داخلي -أضع يدي على أذني مِن قوَّتِهِ حَتَّى لا أسمعه- يقول:

"لا تنهزم .. اِقرع طبولَ الحرب في وجه من يحاولون إخضاعك.. أنت الأقوى .. دافع عن نفسك .. ازرع الأمل والقوة في داخلك .. لاتستسلم.. امض إلى الأمام .. الأرض للأقوياء لاتكثر من الالتفات للخلف.. الحياة تفتح أبوابها للطامحين فقط .. كن إيجابيا .. لاتيأس فاليأس حرام عليك .. أنت وحدك تنتصر".

فأمتلئُ حماسةً، وأُنشدُ عالياً كما لو كنتُ في ميدان التحرير:

أنَا هُنَا، أُرِيدُ مَا أُرِيدْ

أَذُودُ عَن مَدَينتي

مَدَينتي أنَا ، هُوِيَّتي أنَا

أذودُ عَن مدينتي الغُزَاةَ

أهْدِمُ الأصْنامْ

أنَا ابْتكرتُ شَعبَها.. سَمَاءَهَا

وَأرضُهَا؟

تسيرُ دَوْماً جَانبي، تنامْ

وَتُتقِنُ الكلامْ

أُعِيدُها إلى الحَياةْ

تُعِيدُني إلى الحَيَاةْ

رَمَادُها أنغامْ ، وَنَارُها أقلامْ

مَدَينتي أنَا، هُوِيَّتي أنا

أنَا أنَا الإنسانْ.

○

أكونُ سعيداً عندما أطلُّ مِن سفينتي على ما أريد .. وأرسو أينما أريد ، أنَا الذي أكتشف، وأنَا الذي أحارب، وأنَا الذي أصدر قرارَ وقفِ إطلاقِ النّار!

أُحِبُّ المكتبة.

وأكونُ سَعِيداً جِدَّاً عندما أذهب إلى المكتبة بإرادتي ، وأجلس على كرسي القراءةِ بِمزاجي ، وأقول للمشرف على رسالتي في الجامعة : لااااا !

أُحِبُّ رفاقَ القلم.

وأكونُ سَعِيداً جِدَّاً عندما أجد في ماليزيا أصدقاءَ كُتَّاباً كَمِثْلِ... لا لا داعي لذكر اسمها الآن.

أحبُّ شِعري.

وأكون محتفلاً بنفسي كاحتفالات الصينيين في الشوراع عندما أكتب قصيدة جديدة ، لأن الشعر في ماليزيا، كحجر الفلاسفة نادر وعزيز.

أُحِبُّ استقلالي.

وأكونُ سَعِيداً جِدَّاً عندما لا أكون في أيِّ "جروبٍ" أدبيٍّ .. حيثُ لا يظلم نصوصي أحدٌ، ولا يتجاهلني أحدٌ ، وحيثُ لا أظلم أحداً، ولا ترتفع عَقِيرةُ أحدٍ بِاللَّائمةِ عليَّ .

كم أنا سعيد بعزلتي وكتبي.. وبأحلاميَ الفكريَّةِ الملوَّنة .. هذا إنْ عُدّت عزلة!

أطلُّ مِن وراء هذه الشَّاشةِ على ما أريد ، فلا أنا مُضطرٌّ لأمتدح كهنةَ بعْل كما رواية "الجبل الخامس" ، أولئك الذين بينهم وبين ما أريدْ ، سقفٌ مِن حديد .

أُحِبُّ الفلسفة.

الشخص الوحيد الذي أشعر أنه قد يحتويني على انفعالاتي ويستوعب وَحداتي الذَّكِيَّةَ، هو سقراط!

تلك العينُ المسافرةُ في الكون، والرُّوحُ الملهِمةُ لِشُذاةِ الحكمة ، والمعلم الحليم الصبور.

هو عالمي الحُرُّ البديعُ الملهمُ

هو عالمي الرَّحْبُ الوَرِيفُ المنْعَمُ .

*

أنا ملءُ تاريخي على هذي البسيطةِ

مُفعمٌ بالحبِّ لا أتبرَّمُ

*

لا تستقرُّ الرِّيحُ ماطرةً هنا

زُوَّادتي بدمِ القصيدِ:

الألمُ .

*

أنا منهُ في فلَكٍ أزورُ عوالماً

أخرى

وينشعبُ الطريقُ ويَلأَمُ

*

وهنا صدى روحي ترِنُّ بأحرفي..

الأرضُ ينبضُ قلبُها ويُزَمزِمُ

*

حاولتُ أسترضي الدَّيارَ بِقُبلةٍ

أن لا يُواطِئها الدَّعيُّ المجرمُ

لكنها اعتبرتْ رجائي مِزحةً

فَسَحبتُ خَيْباتِي .. ورحتُ أعَوْلمُ .

*

هو عالمي فيهِ ابتنيتُ سفينتي

وَجَمَعْتُنِي جَيشاً ، وقلتُ : تقدّموا

*

هو عالمي

من وحي أفكاري

فضاءٌ بي على صخر الهوى يتدفَّقُ

*

خبّأتُ أجزائي الصغيرةَ من دمي

حتى إذا ودَّعتُ يوماً أُشْرِقُ

*

أنا لي سهامٌ لا تفارق جعبتي

يومِ الكريهةِ تنبري

وتُشَقِّقُ

*

الرَّمزُ في لغتي الشَّرارُ المحرِقُ

الرمز في لغتي الحصانُ الأبلقُ

*

هو عالمي

مُتحجِّرٌ مِحرابُهُ

مُتفتِّحٌ دَاوُودُهُ .. مُتألِّقُ .

الله الله!

ها أفعل كما كان يفعل البحتري! يصفق لنفسه كلما كتب قصيدة.

❖

قاتَلَ اللهُ المنافي!

أتذكَّرُ بين حينٍ لآخر شباب القرية وهم يلعبون "الضُّومنه" إلى الفجر على ضوء الفوانيس! هكذا ننطقها في قريتنا" الضُّومنه".

لكنَّ قريتي لم تعجبني!

أفكر في باريس كثيراً.

كانت كاترينا الفتاةُ المقدَّسةُ تُجيد أكثر من لغة ، وكان الرُّومان يكرهونها ويعجبون كيف لهذهِ البربريةِ معرفةَ ما لا يعرفون ؟! بل مَن أَذِنَ لها بأن تتعلَّم أصلاً ؟!! غير أنَّها أصرَّتْ على القراءةِ والتَّرجمة؛ فلمْ يَرُقْ ذلك لكهان المعبد ، فتمَّ القبضُ عليها، وصَدَرَ الحكم بالإعدام أمام مرأى الناس.

في اليوم التالي وهم يدقّون المسامير بقسوةٍ في يديها ، ويرفعونها ببطء على خشبةٍ إلى الأعلى؛ قائلين بسخرية: إن كنت تحبين المسيح فموتي مِيتته ! وهي ترمق الناس بابتسامة لطيفة لم تغادر شفتيها، حين سقط الحبل!

وحين تَدَلَّى عُنقُها، وارتختْ أعصابُها؛ اشتعلتْ روما ، وسقطتْ روما في اليوم التالي قطعةً قطعة!

إن المعرفة نفوذ وقوة ، إنها الخروج على السائد ، وتغييره إلى الأفضل .

لكنّ صاحب هذه المقولة "المعرفة قوة" فسَّر القوة تفسيرا حرفياً، فَحَرَّضَ على قمع صوتِ الحرِّيَّة، وقهر الناس.

"المعرفة قوة" عندي هي الإيمان بالله، وقهر الموت!

قهر الموت بأن تقدم عملاً صالحاً، كتأليف كتاب أو قصيدة أو.. كل ما يدخل تحت لافتة العمل الصالح، يُرِدِّده الناس، وتلحقك ثماره حتى وأنت في قبرك!

لقد قهر الموت جسدي، لكن روحي مبثوثة في الناس.

والمعرفة فنّ التغيير، وهو يأتي للانتقال بحياة الناس من الأمّيّة إلى التّقدّميّة، حيث الرّخاء الذي يليق بالإنسانية الراقية (ولقد كرَّمنا بني آدمَ وحَمَلناهمْ في البَرِّ والبحرِ ورزقناهمْ مِن الطَّيِّباتِ وَفضَّلْناهمْ على كثيرٍ مِمَّنْ خَلقنا تَفْضِيلا).

الحضارات التي عرفتها الأممُ عبر التَّاريخِ البشري، إنما جاءت ثمرةً لنفوسٍ ظمأى تاقتْ إلى التغيير وصناعة الحياة .

ألا أكون كاترينا وأنا لا أدري؟!

هكذا كانت كاترينا تُفكِّر، ثم آل بها الحال إلى الذي تعرف!

ولكن قل لي:

ما شان باريس بكاترينا؟

كانت باريس قِبلةَ أدبائنا العرب، إبَّان النّهضة العربية، ومِمَّا علِق بذهني مِن وصاياهم:

الرواية فرنسية، والشعر إنجليزي.

ليس هناك إجماع حول هذا، ولكن هكذا خُيِّل إليَّ في قريتي الصغيرة.

❖

وأنا أسرح بخيالي على جزيرة مكتبتي!

غرفتي في المسجد أطلقت عليها : جزيرة! إنني أدخلها بصعوبة! بسبب انتشار الكتب على الأرضية! كانتشار الأشجار في جزيرة!

فأنا أقرأ خمسة كتب في وقت واحد، بين شعر ورواية وأدب وفلسفة وتاريخ، خشية الملل، وأخرج من الغرفة وكتبي شاخصة إلى سقف الغرفة تتأمل، حتى إذا عدت، انكببت على آخر صفحة وقفت عندها، فلا أنشغل بتقليب الصفحات!

أظل أقرأ ثلاثة عشر ساعة أو يزيد! لا أدري كيف يمر الوقت! وعند الفراغ من القراءة، أشعر بأن رأسي أصبح بحجم كوكب!

أمتلئ اشتياقاً لأهلي، وغمّاً من جرائد السلطان التي تشبه غرف النوم الخاصة، لا تسمح لي بالنشر! فأستلقي وأغمض عيني وأطلق للخيال عناني مستروحاً؛ أدندن، أصنع أفلاما هندية!

"ذات مرة غير بعيدة.. وأنا أسرح بخيالي على جزيرة مكتبتي .. والجهد قد بلغ مني أشده.. وعيني بين النوم واليقظة.. صادف أن لقيتُ مجموعةً من الأدباء الأجانب صدفة، كنت مترددا، وحين عزمت واقتربتُ منهم ، وتعرفتُ عليهم، ذهبتُ بهم إلى مكانٍ على الشاطئ ، وأجلستهم في مكان كنت أحب الجلوس فيه لشرب الشاي والقراءة ، وبدأت أعرفهم بنفسي!

قلت لهم : إني من اليمن، فارقت قريتي الصغيرة منذ ربع قرن، وخالفت أعراف قبيلتي، تلك التي تنظر لعازف العود، نظرة تشاؤمية، فعزفت لهم على آلة العود تلك، وكانت رائحةُ الحطب المشتعل تنتشر هنا وهناك..

كان الحديث شيّقاً، استزادوني فقلت: أذكر حين كنتُ في الصف الثاني ثانوي كانت بيدي مجلة طبية ، ورأيت صوراً لأبراج باريس ، اندهشت لتمثال الحرية ، وكم كنتُ منذهلاً حين رأيتُ تلك الشوارع البديعة والمتنزهات العامة ، والناس فيها يحتفلون ويغنون ، ورأيتُ فيها شخصاً يشبهني تماماً!

تقصد كاترينا؟!

مدينةٌ كتبُ الفلسفة فيها محرّمة..

دواوين شعر في المسجد!!

عود مغلّف بسجادة تحت السّرير!!!

سترك يا رب!

أنت في مدينة عسكريَّة؛ لابد أن مصيرك سيكون كمصير كاترينا!

إستمرَّ الحديثُ إلى أن غادر الضيوف عند منتصف الليل ، ثم ها هي ظلالهم تتلاشى بين عينيّ.

أغلقت الرواية التي بين يدي ، وظللتُ أردِّد :

كاترينا.. كاترينا.. إلى أن غرق كلُّ شيءٍ في الظلام.

أسماء عبدالكريم

١٥–نوفمبر–٢٠٢٤

صوتٌ في داخلي–أضع يدي في أذني مِن
قوّته حَتّى لا أسمعه– يقول:

"لا تنهزم.. اِقرع طبولَ الحرب في وجه من يحاولون إخضاعك.. أنت الأقوى.. دافع عن نفسك.. أزرع الأمل والقوة في داخلك.. لا تستسلم.. أمض الى الأمام.. الأرض للأقوياء لا تكثر من الألتفات الى الخلف.. الحياة تفتح ابوابها للطامحين فقط .. كن ايجابيًا.. لا تيأس فاليأس حرامٌ عليك.. انت وحدك تنتصر".

فأمتلئُ حماسةً، وأنشدُ عالياً كما لو كنتُ في
ميدان التحرير! ...

أسماء عبدالكريم

https://t.me/My_novelsss